دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	زهاء حديد ، ظاهرة عربية في العمارة العالمية
المصدر:	عالم الفكر
الناشر:	المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
المؤلف الرئيسي:	عارف، محمد
المجلد/العدد:	مج 27, ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	109 - 125
رقم MD:	216517
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	حديد ، زهاء ، التصميم المعماري ، الهندسة المعمارية ، المهندسات العربيات ، المهندسون العالميون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/216517

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

زهاء حديد، ظاهرة عربية في العمارة العالمية

محمد عارف*

في عام ١٩٧٧ عندما كانت المهندسة المعمارية العربية زهاء حديد تلميذة في السنة الخامسة في كلية الهندسة المعمارية البريطانية AA كتب أستاذها المهندس المعماري العالمي المعروف رم كولهاس يقيّم عمل تلميذته بالشكل التالي :

«يشبه أداء زهاء في السنتين الرابعة والخامسة من دراستها الصاروخ الذي يرتفع ببطء، مستطلعاً مساره اللاحب المتسارع. الآن هي (كوكب) في مدارها الخاص الذي لا يضاهى».

وتوقع كولهاس بالروح التنبؤية للأساتذة الجيدين أن تنال تلميذته في حياتها العملية جوائز ومصاعب : «فبسبب توهج وقوة عملها سيكون من المستحيل الحصول على مهنة تقليدية». وعبّر المعماري العالمي عن «السعادة والفخر» في أن يعمل مع تلميذته في مشاريعها المقبلة.

(*) رئيس قسم العلوم والتكنولوجيا في صحيفة «الحياة» – لندن.

عمارة «الذروة»

درست زهاء حديد الرياضيات في الجامعة الأمريكية في بيروت قبل أن تحقق حلمها بالانتماء إلى الكلية المعمارية Architectual Association في لندن عام ١٩٧٢. ويعتبر التحاق زهاء للدراسة في هذه الكلية - التي تعد من أرقى معاهد العمارة العالمية - مغامرة غير مأمونة العواقب. لم يدرك المدرسون الانكليز ما جاءت تفعله عندهم، وتصوروها «عربية ثرية تندفع إلى الكلية داخلة وخارجة على راحتها». وبسبب ولعها بتصميم ملابسها بنفسها بدت لهم مثل «ممثلة تظهر فقط في الفترة بين التمارين على مسرحية». وادعى أحد أساتذتها أنه نجح في ترويض هذه «الأميرة العربية» السمراء الغريبة الأطوار والضخمة الحجم والملامح. وذكر أنه حبسها في مرسم الكلية طوال شهر، وطلب منها أن «تتعلم الرسم قبل أن تفكر بأن تصبح معمارية». وتعلمت زهاء كيف ترسم، بل اشتهرت أولاً بفضل رسومها المعمارية التي يقول عنها تيرينس رايلي مدير قسم العمارة في متحف الفن الحديث في نيويورك: «لم يكن واضحاً ما يمكن أن تستخدم فيه هذه البنايات»، ويضيف: «لكن كل شخص يرى رسومها يتمنى أن يكون في بناية تجعله يحس بما يحس به وهو يتطلع إلى الرسوم».

والتحقت زهاء بعد تخرجها عام ١٩٧٨ للتدريس في كليتها نفسها، وافتتحت مكتباً معمارياً خاصاً بها، واستمرت تصاميمها طوال السنوات الماضية في الحصول على الجوائز العالمية، واحتلال أغلفة المجلات المعمارية الدولية، وتحولت بنايات شيدتها، مثل دائرة مكافحة الحريق في مصنع على ضفاف نهر الراين في ألمانيا، ومطعم «منسون» في اليابان، ومجمعات سكنية في دوسلدورف وبرلين وفيينا إلى معالم معمارية سياحية.

وتمثل زهاء حديد ظاهرة فريدة من نوعها في العمارة العالمية تتحدّى التصنيف ضمن أي مدرسة معمارية. انتبه إلى ذلك بشكل مبكر المعماري الياباني المشهور آراتا ايسوزاكي الذي كتب في مقدمة كتاب صادر عنها في طوكيو باللغتين اليابانية والإنكليزية أن: «عملها يحمل طابعاً حداثياً صافياً، لكن يمكن اعتبارها من ممثلي عمارة ما بعد الحداثة». زهاء نفسها لم تكن تتوقع، وهي لا تزال طالبة في كلية الهندسة الحصول على مهنة تقليدية في العمارة، وأدركت عند تخرجها وتعيينها مدرسة في نفس كليتها أن عليها الاختيار بين القبول بلعبة آمنة أو المغامرة، وأدركت حسب قولها «هذا هو الشيء الرئيسي فعلاً، وإذا استطعت المغامرة فلا تترددي». وفازت زهاء حديد، وهي لا تزال معيدة في كلية AA على ٥٣٨ مهندساً بتصميم عمارة «الذروة» The Peak، التي كان ينبغي أن تقام على ذرا الجبال المحيطة بمدينة هونغ كونغ في الصين. ووقع نبأ فوزها وقع الصاعقة على مجموعة من أقدر المهندسين العالميين الذين ساهموا في المسابقة، وبينهم بعض

أساتذتها الذين احتجوا علناً على ذلك. وتجاوز حجم التحدي الذي شكله فوزها المقاييس المألوفة في العمارة، حيث ذكر آراتا ايسوزاكي، الذي كان عضو لجنة التحكيم أن تصاميمها «تجاهلت جميع التعليمات التي نصت عليها المسابقة، واستدعى ذلك رفضها مما اضطرها إلى البدء من جديد».

وفي عام ١٩٩٤ فازت زهاء على ٢٧٠ مهندساً بتصميم دار الأوبرا في مدينة كارديف في مقاطعة ويلز ببريطانيا. وفي عام ١٩٩٦ فازت على ٢٩٦ مهندساً بتصميم «جسر سكني» في قلب مدينة لندن يحتوي على دور مسرح وسينما وفنادق ومطاعم. في جميع تلك المسابقات كان منافسوها من أبرز المعماريين في العالم، مثل البريطاني السر نورمان فوستر، الذي بنى عمارة مصرف هونغ كونغ وشنغهاي، والإيطالي مانفريدي نيكوليتي، مصمم بناية متحف الأكروبوليس في أثينا، والأسباني رافاييل مونيو مصمم متحف ثايسن في مدريد. مع ذلك لم تنفذ مشاريع المهندسة العربية بحجج مختلفة، مثل اعتبار تصاميمها بنايات عائمة في الهواء غير قابلة للتنفيذ. وتبدو هذه الشكوك في غير محلها بالنسبة لمهندسة من بلد كالعراق أشاد «الجنائن المعلقة» قبل أكثر من أربعة آلاف عام. وتعلق زهاء على هذه الشكوك بمرح وسخرية معلنة عن اعتقادها بأن البنايات يمكن أن تعوم، ثم تستدرك قائلة «أعرف أنها لا تعوم، لكنني أكاد أؤمن بذلك - باستثناء- عندما التقي بمهندسيّ طبعاً»! وتقرّ زهاء بأن رسومها ولوحاتها المعمارية تبدو متسامية على الموضوع المادي، وتوضح أنها شرعت منذ كانت طالبة في السنة الرابعة في رسم أشياء تمثل الفكرة المعمارية حتى لو لم تكن واقعية دائماً. فالرسوم بالنسبة لها بحث في الموضوع، واستكشاف لأشياء محددة لا يمكن تحقيقها بطريق آخر. ومع أنها تعتبر من أبرز رواد العمارة العالمية الطليعية، فإنها تبدو مثل مهندس معماري عربي من الطراز القديم، حين تعلن : «لا يمكن أن تترك مهمة رسم أعمالك لكومبيوتر أو مقاول أو مستخدم ما، كما لا يمكن أن يقوم بعملك هذا مكتب معماري آخر. صحيح أن ذلك يستغرق وقتاً، وهناك وقت صحيح لكل شيء».

ولا تعني الرسوم بالنسبة للمهندسة العربية تمثيل الشكل النهائي للعمل، بل رؤيته بطرق مختلفة، كما لا تقتصر الرسوم على تقديم صورة جذابة للمشروع، بل تساعد على اكتشاف كيف يمكن تغيير الأشياء وتطويرها. وتقول زهاء «قال لي البعض لا يمكن لأي شخص أن يقف فوق البناية ليراها من الجو. قد لا يكون ذلك ممكناً، إلاّ إذا كان الشخص ذبابة، لكن فحص الأشياء بهذه الطريقة يجعل بالإمكان رؤيتها من ٣٦٠ درجة وبطرق مختلفة». وتوضح زهاء أن لجوءها إلى الألوان في تصاميم عمارة «الذروة» لم يكن بدافع التزويق، بل لأنها تظهر المزاج بشكل ما. وتكشف أيضاً عن نوعية العمارة... وفي كل مرة قمنا بتلوين الرسم تغير إدراكنا للبناية من المواد المستخدمة فيها وألوانها. على سبيل المثال لم تكن لدينا في الواقع فكرة عند تصميم «الذروة»

حول شكلها النهائي، ولكن باستخدامنا الرسوم والألوان طورنا ببطء - لكن بثقة - يقينا معينا. التلوين كان بمثابة اختبار. وتعتقد زهاء أن استخدامها للألوان في تصاميمها لمعرض متحف «غوغانهايم» في نيويورك مكنها من «معرفة حدود التقنية، وكيف يمكن السيطرة عليها».

أصول زهاء

تجمع زهاء حديد في أعمالها بين الرسم وتصميم الأثاث والهندسة الداخلية والمعمارية، ويعتبر الناقد المعماري العالمي ألفين بويارسكي قطع الأثاث التي تصممها «من شؤون القلب... كل قطعة تملك كما يبدو تعقيد بناية بكاملها». وكان المعرض الاستعادي لأعمالها الذي أقيم في قاعة «غراند سنترال ترمينال» في حي مانهاتن في نيويورك عام ١٩٩٥ مناسبة لتعريف النقد العالمي على ملامحها الأساسية. وانتبه النقاد الأمريكيون للمرة الأولى إلى أصول فنها الممتدة إلى الفترة السومرية وعصر النهضة الإسلامية. ويقول ناقد صحيفة «نيويورك تايمز»: «إن مشاهدة هذه الأعمال تقربنا من إدراك المعنى الأعمق لبعدها التاريخي والعمراني». وذكر الناقد المعماري الأمريكي هربرت موشامب أن: «تصاميم زهاء حديد التي تبث إحساساً قوياً بالحركة الدينامية تذكر بأعمال أبرز المهندسين العالميين في القرن العشرين».

وتبدو بنايات زهاء كأنها مشتقة من رسومها التي تمثل بالنسبة إليها المادة الخام للعمارة. ويعتبر الرسم مصدر قوة أعمالها المعمارية التي يراها النقاد الأمريكيون في «الحركة الدينامية المنبعثة ليس من أسلوبها في تشكيل التكوين العماري فحسب، أو تجميل السطح، بل من التحكم بكل عنصر في البناية لأجل تفجير طاقة داخل الحيز المعماري وحواليه». وتتحدث «نيويورك تايمز» عن أعمال المهندسة العربية بلغة عصر الفضاء مشيرة إلى ما فيها من «رؤية كونية تبرز خلالها السطوح والكتل المندفعة بصورة دراماتيكية على خلفية سوداء، مثل مسافرين بين المجرات مندفعين إلى لقاء حميم في أغوار الفضاء». ويهتم النقاد بالخلفية التراثية لأعمال زهاء، التي بدت حسب تقديرهم في بنايتها في دوسلدورف في ألمانيا، حيث «يمكن القول نظراً لأصولها العراقية أن لهذا العمل الغرافيكي صلة بالدور البارز للخطوط في العمارة الإسلامية». وذكروا أن «البعد الإسلامي يظهر في استكشافاتها الهندسية، وفي تعاملها مع الهندسة ليس كمجرد وسائل لإنتاج أشكال وأنماط جذابة، بل كايديولوجيا عصرية في التزامها بالشكلية، وقديمة في ارتباطها بالمعتقد الديني والتقليد الاجتماعي».

وتقر زهاء حديد بالبعد العربي والإسلامي في أعمالها. وتقول بهذا الصدد في حديث لكاتب هذه الدراسة.

«أنا عربية وكنت على وعي تام بذلك دائماً... ورغم أنني عشت فترة طويلة في بريطانيا فإنني لم أفقد هويتي العربية، وأريد أن أفعل كل ما استطيع لاستكشاف القدرات الكامنة في المنطقة العربية والمجهولة مثل الثقوب السوداء في الكون، أعني القدرات الحضارية والثقافية وليس المادية». وتذكر زهاء أنها تحس بفكرة الأبدية عندما تدخل فناء مسجد قديم في أي مدينة عربية، أو تتجول على ضفاف نهر دجلة والنيل. وتعتقد أن أعمالها المعمارية تعكس مؤثرات عدة (شخصية وعامة)، وأنها يمكن أن تعتبر نتاج التفاعل بين حضارات المنطقة العربية والعالم.

فمن المهم في رأيها «إدراك اننا نتاج ظرفين يحيطان بنا في آن. وأن علينا أن نعرف تراثنا، ونتأكد من فهمنا لهويتنا، وأن ندرك في الوقت نفسه علاقتنا بالعالم ككل. ولا تعتقد زهاء أننا يمكن أن نكتفي بالنظر إلى داخلنا فحسب، بل علينا السير في نشاطين مختلفين في آن، أحدهما يواصل التغيرات الجارية في العالم، والآخر ينظر إلى داخلنا ويعمل على إيجاد طرق أفضل لاكتشاف إمكاناتنا الكامنة. هذه مهمة كبيرة لكنها ممكنة التحقيق في رأيها.

وتدرك زهاء حديد تعقيد وغنى انتمائها إلى عالمين مختلفين. فالمرء في تصورها نتاج الخلفية والثقافة التي يتلقاها وهو في الوقت نفسه نتاج ما يحدث له. «إنه ليس إناء أنتجه بلد معين بل هو مركب من كل ما مر عليه. وقد لا تظهر الأصول للعيان لأنها علاقة رمزية وليست شكلية». وتعتقد زهاء أن من غير الممكن تحديد ما هو سومري في أعمالها أو ما هو بابلي أو عربي إسلامي، وماهو من عمارة الحداثة العالمية التي تنتمي إليها، أو من المدرسة الفنية «التفكيكية» De-constructivism للثورة الروسية، التي يرى النقاد أنها بعثتها بأعمالها الهندسية. ولا تعتبر زهاء الانتماء إلى المنطقة العربية لافتة معلقة بل هو جزء من تأثير الشرق والإسلام عليها وعلى العمارة العالمية ككل. فالطابع التجريدي للعمارة العربية والخط العربي أثرا بصورة قوية دائماً على العمارة الغربية. يظهر التأثير واضحاً في تبني عمارة الحداثة مفاهيم هندسية مماثلة للطرز العربية الأصيلة، مثل فناء الدار أو الباحة الداخلية المنفتحة على الهواء الطلق والانتقال السهل بين المواقع المغلقة والمفتوحة.

تفاعل الحضارات

وتظهر الأصول العربية في تصميم زهاء لمنزل في ميامي في الولايات المتحدة، يتم فيه على غرار الطراز العربي التقليدي عزل القسم العام من المنزل، والحيز الذي يستخدم للحياة اليومية عن القسم الشخصي. غرف النوم والمرافق في جناح من المنزل منعزلة عن الجناح العام. وتعتقد زهاء «أن هذا ينشىء فكرة شيئين منفصلين قد يحدث شيء مثير في نقطة التقائهما».

ويظهر تفاعل الحضارات في النقلة الباهرة التي تقوم بها المعمارية العربية من التصميم المنزلي في ميامي إلى تصميم «متحف القرن التاسع عشر»، الذي يقع فوق محطة سكك حديد «تشيرنغ كروس» وسط مدينة لندن. هنا تستعيد زهاء صورة الساحة الحمراء وسط الكرملين في موسكو، حيث تمتزج فترات معمارية مختلفة، تعتبرها «أكثر الحلول المعمارية التي شاهدتها إثارة... إنها رائعة من دون ريب : كنيسة القديس باسيل، وسوق، «الغوم» المركزي والكرملين وضريح لنين. كلها من فترات مختلفة، مع ذلك فلأنها صنعت جميعاً بإتقان محكم تتعايش كلية في شكل مريح تماماً». وفي الحقيقة لم ينتبه النقد الغربي الذي تناول بالتفصيل موضوع تأثر زهاء حديد بالعمارة الروسية إلى البعد الإسلامي في هذه العمارة. هذا البعد لا تخطئه العين في القباب الملونة المرصعة للكنائس الروسية التي تبدو تنويعات على العمارة الإسلامية، مثل تنويعات الألحان العربية والتركية والفارسية في المقام العراقي.

وتدرك زهاء حديد تنويعات العمارة العربية الإسلامية نفسها، التي تقول عنها إنها ليست شيئاً واحدا. وتشير إلى مثال عمارة مدينة نيويورك، التي لا يمكن اعتبارها سومرية أو بابلية الطراز رغم تأثرها الواضح بالزقورات السومرية. وتذكر أن عمارة الحداثة العالمية التي تعتز بها تأثرت بأساليب معمارية مختلفة عدة، لكن هذا التأثر ليس بالأشكال المعمارية بالدرجة الأولى، بل بالمعيار الأخلاقي، وهو أهم بكثير - في رأيها - من الشكل المعماري. تظهر القيمة الأخلاقية المؤثرة للعمارة الإسلامية في طراز المساجد القديمة، التي لا تقوم كهياكل منعزلة مثل الكاتدرائيات، بل مفتوحة للجميع، تلتحم بالجوار، وتصبح جزءاً أساسياً من الحياة الاجتماعية لسكان الحي أو المدينة. يظهر ذلك أيضاً في بناء المدارس والجامعات العربية القديمة، مثل المدرسة المستنصرية في بغداد التي تلتحم بالأسواق والأحياء المحيطة بها.

وأكثر ما يسحر زهاء في العمارة العربية «الانتقال المدهش بين المواقع المغلقة والمفتوحة». وتتحدث بعاطفة قوية عن إحساسها المعماري البهيج حين تنتقل من حيز مغلق مثل المصلى في جامع الزيتونة في تونس إلى باحة الجامع المفتوحة للضوء والهواء والطبيعة وطيور الحمام. وتقر زهاء بتأثير الخط العربي على التنظيم التجريدي لأشكالها المعمارية، لكنها لا تدّعي أنها المعمارية الوحيدة التي تأثرت بذلك، وتقول إن العمارة شيء معقد يفرض على المهندس أن يفكر بشكل التصميم وبنفعه المادي أيضاً، وكيف تحتل البناية حيز الأرض وتقوم بوظائفها كتنظيم.

وتذكر زهاء حديد أنها لا تعرف قطعاً (ربما إلاّ إذا تعرضت لتنويم مغناطيسي) المؤثرات التي خضعت لها. فهي عاشت معظم حياتها في أوروبا وتعلمت العمارة فيها، لكنها ولدت ونشأت في بغداد وتأثرت بنهر دجلة وبالموهبة العراقية في رواية القصص، وبالطبيعة المسطحة لأرض البادية

العربية، وبطراز عيش البدو الرحل. نشاطاتها المعمارية حول العالم وتصاميمها في اليابان وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة وبريطانيا قد تعكس الروح البدوية في إقامة حيز أو سكن في أي مكان وموقع. لقد تأثرت بكل ذلك بأشكال مختلفة، لكن الشيء الأساسي الذي كانت تحاول أن تصنعه دائماً هو توليد حيز أو مكان Create a space .

وترى زهاء حديد أن حقيقة كونها عربية مسلمة لا تعني أن عمارتها ينبغي أن تأخذ شكلاً محدداً. فالتفكير على هذه الطريقة سطحي تماماً في رأيها. وهي لا ترتاح إلى إطلاق النقاد وصف «البساط السحري» على بعض تصاميمها المشهورة مثل البنايات التي تبدو عائمة في الهواء على الجبال المحيطة بمدينة هونغ كونغ. فهناك في رأيها مستويات عدة للعمل المعماري يصعب معها تحديد الموقع أو العصر الذي جاء منه. وهي لا تؤمن بالعودة إلى الماضي أو التمسك به، وترى أن ذلك يجعل التراث عبئاً ثقيلاً. فالتراث في تقديرها ليس حقيبة نجرها خلفنا، بل قوة تحرير. وهي ترى أن التراث المعماري العربي يتركز في أسلوب المعماريين القدماء في إيجاد حيز أو مكان، وسخائهم الذي تعتبره أكثر ما يميز الروح العربية : سخاء المكان وسخاء الطبع وسخاء النظرة الإنسانية.

وتقارن المهندسة العربية بين الحس العربي الحي بالماضي والحس الغربي المتجمد. تشير في ذلك إلى مثال لندن التي فوّت عليها تمسكها بتراثها المعماري القديم فرصة معانقة القرن العشرين، ولا تبدو العاصمة البريطانية في رأيها مهيأة للانطلاق في القرن المقبل الحادي والعشرين. على الضد من ذلك يبدو فهم الشعوب القديمة للماضي مختلفاً تماما. فالماضي مسألة مسلّم بها بالنسبة للعرب والصينيين والشعوب العريقة الأخرى، إنه قائم حولهم عبر العصور ولايحتاجون إلى إعادة سيرته في كل آن. الإحساس الدائم بحضور الماضي وسكينة العصور تساور المرء وهو يسير على ضفاف دجلة في بغداد أو النيل في مصر أو نهر اليانغتسيي في الصين. ولايحتاج الماضي إلى استدعاء في جامع الزيتونة في تونس أو في المدرسة المستنصرية في بغداد، أو في الأحياء الشرقية والأسواق القديمة التي تتعرج في أزقة لا نهاية لها في اسطنبول والمدن الإسلامية والعربية القديمة.

إلاّ أن زهاء تعارض فكرة الاقتباس الشكلي من الهندسة العربية والإسلامية. فكرة القوس مثلاً التي تتردد في الأعمال المعمارية العربية القديمة ليست في رأيها فكرة شكلية، بل مرتبطة ارتباطاً أصيلاً بالمواد والهياكل المعمارية السائدة في الماضي. الأقواس في العمارة العربية القديمة تملك وظيفة بنيوية وتعد عنصراً من عناصر التركيب المعماري، لكنها تصبح تقليداً غبياً عندما يجري اقتباسها في العمارة الحديثة وبناؤها من الاسمنت والخرسانة.

عمارة الحداثة

وتعتقد المهندسة العربية أن عمارة الحداثة، التي تعتبر نفسها استمراراً لها تأثرت بقوة بالشرق. يمكن العثور على أعمال أبرز مهندسي القرن العشرين مثل الفرنسي لي كوربوزيه والألماني غروبيوز والأمريكي فرانك لويد رايت على العناصر الشرقية التي تمثلت في البساطة والتجريد. وتذكر زهاء أن عناصر الحداثة تبدو واضحة للعيان عند وضع رسوم تخطيطية هندسية للمنازل المتضامة والأحياء المندمجة في تونس القديمة. فكرة الفناء والباحة الداخلية المفتوحة في المنازل القديمة في المغرب وتونس والعراق تبناها مهندسو الحداثة في الثلاثينيات في سعيهم إلى إدخال الهواء والضوء إلى البنايات، وهذه عناصر لم تكن مقبولة من الفرد الأوروبي غير المعتاد على حضور الهواء والضوء داخل البنايات.

وتبدو هذه التأثيرات قوية في أعمال زهاء المعمارية التي تجمع بين عناصر الضوء والهواء وروح «البهجة التي تخلقها تكنولوجيا القرن العشرين» وفق تعبيرها.

ويجد النقاد في تفكيك زهاء للحيز المعماري، وتجزئتها الشكل المعماري وموقعه ملامح شبيهة بأعمال أشهر الفنانين العالميين، مثل الرسام الروسي ماليفيتش والأسباني بيكاسو والمدرسة التكعيبية في الفن، بل يقارنون بينها والفيلسوف التفكيكي الفرنسي جاك دريدا. ويظهر الخيال الجريء لزهاء حديد في خروجها عن الإطار المحدد لمدارس الحداثة واكتشافها تراث المدرسة التفكيكية الروسية التي أعادت لها الاعتبار واستمدت منها فكرة علاقة الحيز المعماري بالكون.

وتعترف زهاء حديد بأن أعمال الروس كانت نقطة انطلاق بالنسبة لها، وهي تقول في ذلك أن أكثر الجوانب إثارة في أعمال الروس ليس رسومهم الغرافيكية، «بل في أن تجربتهم لم تنته قطّ، ولم تُختتم». وتشير إلى أنهم «كانوا أكبر المغامرين في عصرهم ليس كرسامين فحسب، بل كمعماريين أيضاً. لقد حاولوا أن يوسعوا الحدود القصوى». ويكمن إنجاز المهندسة العربية في التقاطها الشحنة المعمارية في رسوم ماليفيتش وليونيدوف وفناني الثورة الروسية الآخرين، الذين أكدوا على القوة التعبيرية الصافية للأشكال الهندسية الأولية كالمربع والدائرة والمثلث. وتذكر زهاء أن الدرس الأساسي الذي تعلمته من الفنانين الطليعيين الروس هو، «كيف يمكن المداورة بين صورة الشكل المعماري ووجوده في موقع محدد ومضمونه البرنامجي وتركيبه».

وتؤكد زهاء أن جاذبية المدرسة الفنية الروسية، التي انطلقت بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ تكمن في تفاؤلها وبرنامجها الاجتماعي. فعمل المهندس لم يعد يقتصر على خدمة أفراد مالكين أو أمرا إقطاعيين، بل خدمة عموم الناس والجمهور. ويثير إعجابها القدر العظيم من التفاؤل الذي كان موجوداً آنذاك، وتقول : «المشكلة الآن تكمن في اعتقاد الناس أن الأشياء مستحيلة، وأنها غير

قابلة للبناء وغير واقعية، ولن تحدث قط بسبب الوضع الاقتصادي». وتستدرك قائلة : «لكنني اعتقد بأن عليك كمعماري أو مصمم أن تصون تفاؤلك، لأنك من دونه لن تستطيع الحركة حقاً، وقد تقعد ساكناً ولا تعمل شيئاً».

ولكن كيف يمكن أن تساهم زهاء في وضع نصب الألفية الثالثة في لندن، وهي تضع قدمها الأخرى في موسكو العشرينات؟

توضح زهاء في جوابها عن هذا السؤال أن : «ما اجتذبها إلى تجارب الفنانين الروس في العشرينيات هو أن أفكارهم لم تُختبر، وأعني بذلك أنها اختبرت جزئياً في مانهاتن في نيويورك، ولكن لم يحدث ذلك قط في أوروبا». وتضيف أن التعرف عليهم كان بمثابة عملية تربوية، وأنها تعلمت أشياء كثيرة منهم، ولكنها لا تدعو إلى بعثهم الآن، لأن الحياة تغيرت. و«لا اعتقد أن هناك صيغة تدلنا على ماينبغي أن نفعل الآن، لكننا قد نصل عبر البحث في أشياء معينة واختبارها إلى مستقبل أكثر روعة وبهجة. وينبغي على المرء أن يتطلع إلى طرق مختلفة في عمل الأشياء، ليس من الناحية الشكلية فحسب، بل البرنامجية أيضاً. فالأشياء تتغير في وقتنا هذا، ويجدر بنا أن نتطلع إلى ذلك بتفاؤل. لقد حان الوقت الذي ينبغي علينا فيه النظر في الأشياء، واستقصائها لكي نكون عندما نبني على استعداد».

وتعارض المهندسة العربية الاتجاهات المعمارية المعاصرة التي يطلق عليها اسم «ما بعد الحداثة»، وتتمسك بالتقاليد الإنسانية لعمارة الحداثة التي تجمع بين الإيمان المتحمس بالتكنولوجيا والتغيير الاجتماعي. وبدلا من نزعة تقليد الماضي السائدة الآن تعلن تمسكها بالعمل من أجل بناء مدن المستقبل، وإقامة عالم جديد شجاع ونظيف ومنصف لجميع البشر دون استثناء. وتذهب المهندسة العربية إلى أبعد من السباحة عكس تيار ما بعد الحداثة المسيطر حالياً على العمارة العالمية. فهي لا تدعو إلى إعادة إحياء عمارة الحداثة وتقاليد كوربوزيه والمعماريين الآخرين الذين طبعوا القرن العشرين بطابعهم، بل تطوير قيمهم الجمالية وبرنامجهم الاجتماعي. ومع أنها تسلم بأن عمارتهم أبدعت بنايات الخرسانة والفولاذ والزجاج، وغيّرت شكل المدن في كل مكان في العالم، إلا أنها تعتبر مشروعهم ناقصاً، بل لم يبدأ بعد، وتعتقد أن المعماريين يخونون واجبهم إذا استمروا في عملهم «كمزوقين للكيك» الذي صنعته عمارات الماضي.

نجمة عالمية

يقول الناقد المعماري لصحيفة «سانداي تايمز» البريطانية: عندما تحاول زهاء حديد أن تصف بعبارات تقليدية تصميماً لها تواجه صعوبات لا يمكن تذليلها، ولا تجد ما تقوله عنها سوى «انها

بناية بسيطة لها أربعة جدران وسطح»، ثم تستدرك قائلة : «حسنا خمسة سطوح». مع ذلك تتجاوز شعبية زهاء حديد الوسط المعماري التقليدي، وتعتبر ظاهرة فريدة من العمارة العالمية حيّرت النقاد الغربيين منذ فوزها المفاجيء عام ١٩٨٢، على أشهر المعماريين الغربيين بتصميم بناية «القمة» في هونغ كونغ. تخطيطاتها المعمارية القوية تبهر النقاد البريطانيين والأميركيين واليابانيين الذين يلجأون إلى عبارات رومانسية مبهمة لوصفها مثل : «مثيرة» و«مبهجة وأخاذة» و«جواهر مشرقة» و«جمال أثيري» و«نداء مغو». ويعتبر النقاد تصاميمها وأفكارها المعمارية الجريئة هياكل قادمة من عوالم أخرى لا يمكن مقارنتها بأشياء مألوفة على الأرض. وربما بسبب أصلها العربي يستعينون بصورة «البساط السحري» المشهورة في القصص العربية لتفسير تصميم بناياتها العائمة في الهواء على ذرا الجبال المحيطة بهونغ كونغ.

وقد حققت زهاء حديد لنفسها موقعاً متميزاً في العمارة العالمية برؤيتها الاجتماعية لعلاقة العمارة بالناس. وتحمست لها الأجيال الجديدة من المعماريين حول العالم لأنها بقيت، رغم انهيار مدارس الحداثة المعمارية ونكسة الأفكار الإنسانية للقرن العشرين تطور قيم معمارية تجمع بين الإيمان المتحمس بالتكنولوجيا والتغيير الاجتماعي.

ورفعت المهندسة العربية راية الأمل في مواجهة التصورات السائدة حول موت فن العمارة، وعارضت الأفكار المتطيرة من تكنولوجيا القرن العشرين وانتقدت الخوف من سرعة الحياة العصرية، وخشية التغير الدائم في أساليب العيش. وعلى الضد من ذلك اعتبرت كل هذه فرص لتحقيق ما تسميها «البهجة التي أوجدتها التكنولوجيا الحديثة». وهي تقول : «عند التطلع إلى أي مدينة فالمسألة ليست هي كيف نصنع مشاريع معمارية مغامرة، بل كيف يمكن تصميم شيء متميز وبهيج». ومن بين أكثر مشاريعها خيالاً إنشاء حدائق معلقة متنقلة. تقدم هذه الحدائق، التي اقترحت إقامتها في مساحات خالية داخل المدن إمكانات لا حد لها لتغيير المناظر تبعا لفصول السنة.

وتحتل أعمال زهاء أغلفة المجلات المعمارية الدولية، وتحولت بنايات شيدتها، مثل دائرة مكافحة الحريق في مصنع على ضفاف الراين في ألمانيا، ومطعم «منسون» في اليابان، ومجمعات سكنية في دوسلدورف وبرلين وفيينا إلى معالم سياحية معمارية، وأصبحت هذه المهندسة العراقية ذات المزاج البركاني التي تمزج الثلج والنار، وفق تعبير صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية «أحد أكثر الأشخاص نفوذاً في العالم المنيع للعمارة العالمية». وذكرت الصحيفة الأمريكية أن طلبة جامعة كولومبيا في نيويورك نظموا إثر حرب الخليج حملة للمطالبة بجلبها للتدريس عندهم، وكانت زهاء قد عملت قبل ذلك أستاذة مشاركة في كلية الهندسة في جامعة هارفرد.

وتتجاوز شهرة زهاء الوسط المعماري المغلق إلى الجمهور العام الذي يعاملها كنجمة سينما. ويصف تقرير في صحيفة «غارديان» البريطانية حضورها مؤتمر «الاتحاد الدولي للمعماريين» الذي عقد في برشلونة بالعبارات التالية :

«تصور هذا المنظر : امرأة ضخمة تخطو بفستانها العريض المطرز بأشكال متعانقة، وتصعد المنصة في ملعب برشلونة الأولمبي الذي يحتوي على ١٤ ألف مقعد، وتتحدث بتواضع عن مهنتها غير المرئية. وعندما تغادر الملعب ينتشلها الحرس من حشود المصورين والمعجبين الذي يطلبون توقيعها ويسرعون بها خارج المكان».

ويتساءل مراسل الصحيفة : «من هي هذه المرأة؟ أهي أميرة؟ أو نجمة موسيقى الروك؟ لا. إنها مهندسة معمارية تتحدث في احتفال المؤتمر الدولي الذي تبلغ سعر بطاقة الدخول إليه ٥٠٠ دولار». وأشارت الصحيفة إلى حرمان زهاء حديد من فوزها ببناء دار الأوبرا البريطانية في كارديف وعلقت بالقول : «لكنها هنا هي النجمة الأولى بين مهندسين عالميين مثل السر نورمان فوستر والسر ريتشارد روجرز»، وأضافت: «أنها قائدة الرجال والنساء والطلبة والمهندسين الذين يكرسون مهنتهم لتشكيل مستقبل كوكب يتمدّن».

من كارديف إلى سنسناتي

وأثار حرمان زهاء حديد من فوزها بمشروع دار الأوبرا في مدينة كارديف في مقاطعة ويلز احتجاج الأوساط المعمارية الدولية، واعتبرت الصحافة العالمية موقف سلطات المدينة فضيحة، وقالت صحيفة «اندبندنت» البريطانية عن تصميم دار زهاء أنه : «أفضل تصميم لجبهة مائية في أوروبا»، وقال عنه الناقد المعماري لصحيفة «نيويورك تايمز أنه: «قدم الحل لواحد من أكبر تحديات بناء الصالات الحديثة، وذلك عن طريق إنشاء غرفة غنية بصرياً دون اللجوء إلى المنحوتات والرسوم الجدارية التقليدية».

واعتبر فرانسيس دوفي رئيس اتحاد المعماريين البريطانيين حرمان زهاء من فوزها بتصميم دار الأوبرا «معيباً وشائناً». واعترف اللورد كريكهاول رئيس لجنة تحكيم مسابقة الأوبرا، وهو من أشد معارضي تصميم زهاء بأن الذي جرى يشكل «أكثر العمليات الاستشارية كلفة في تاريخ بريطانيا». فقد استغرق الصراع ستة أشهر على تصميم قال عنه النقاد البريطانيون أنه يشبه «جوهرة مشرقة». في البداية رُفض التصميم بدعوى أن موقف السيارات ضيق، وبعد إجراء التعديلات المطلوبة فرضوا على المهندسة الدخول في منافسة جديدة. وعندما فازت للمرة الثانية ادّعت اللجنة الحكومية التي تمول المشروع أن السكان المحليين يفضلون بناء ملعب كرة قدم!

واستشهدت المجلة الهندسية الدولية Architectual Digest في افتتاحيتها بقول المهندسة العراقية ان فوزها كان مفاجأة لها، وأنها لم تكن تتوقع شخصياً أن تسمح بهذا الفوز الأوساط المحافظة في مقاطعة ويلز. وذكر الناقد المعماري لصحيفة «سانداي تايمز» أن فوز تصميم زهاء حديد يعد «صفعة لولي العهد البريطاني وهو في عقر داره في مقاطعة ويلز». ورجحت الصحيفة أن هذا هو سبب التراجع عن تنفيذ تصميم زهاء لدار الأوبرا في مقاطعة ويلز. ومعروف أن الأمير تشارلز الذي يحمل لقب «أمير مقاطعة ويلز» يدعو إلى الحفاظ على العمارة الإنكليزية التقليدية. وترى زهاء أنه يخنق بذلك العمارة البريطانية المعاصرة، فيما يطلق الأمير تشارلز على كلية الهندسة المعمارية التي تدرس فيها زهاء «بيت فرانكنشتاين»!

وتواجه المهندسة العربية الموقف الرسمي منها بروح متحدية مرحة، حيث تقول إذا لم يسمحوا لي بالبناء على الأرض فسأفعل ذلك فوق السطوح. وقد حققت ما يشبه ذلك حين فازت على ٢٩٦ مهندساً بمسابقة تصميم جسر يحل محل «جسر لندن» المشهور القديم. يقام الجسر الجديد، وهو من طراز ما يسمى بـ «الجسور السكنية» Habitable Bridge في قلب لندن بين جسري واترلو وبلاك فرير، ويحتوي على قاعات مسرح وسينما وفنادق ومطاعم. ومع أنها المرة الأولى التي تصمم فيها زهاء حديد جسراً، فإن فيه عناصر أسلوبها الجريء الذي اشتهرت به منذ بنايتها الطافية على سفوح الجبال المحيطة بمدينة هونغ كونغ. دعامات الجسر المثبتة من طرف واحد والمصنوعة من الزجاج والفولاذ والخرسانة تصبح شفافة غير مرئية وسط الجسر الذي ترتفع بمداخله عالياً فوق صف من المقاهي والمكاتب على ضفتي النهر.

وأعقب فوز زهاء بجسر لندن فوزها على ٧٩ مهندساً عالمياً بمسابقة لتصميم بناية متحف الفنون الحديثة في ولاية سنسناتي الأمريكية. واعتُبر فوز زهاء بتصميم البناية التي تكلفت ٢٥ مليون دولار اختراقاً لحاجز الجنس. فهذه أول مرة، وفق قول صحيفة «انترناشينال هيرالد تربيون» تبني امرأة متحفاً في الولايات المتحدة. واعتبر النقاد تصميمها لمتحف الفنون عملاً فنياً في حد ذاته. وذهب مدير المتحف تشارلز دسميرس إلى حد القول ان: «زهاء معترف بها عالمياً باعتبارها واحدة من تلك المواهب الخاصة التي تستطيع أن تعيد تشكيل العالم، أو على الأقل تعيد تشكيل طريقة رؤيتنا له».

وأحدث إعلان الأميركيين عن فوز زهاء صدمة للأوساط المعمارية البريطانية التي اعترفت بمرارة «أن ما تخسره كارديف تربحه سنسناتي». جاء ذلك في تقرير احتل صفحتين في صحيفة «غارديان» هاجمت فيه بعنف أوساط الأعمال والمسئولين البريطانيين على حد سواء. وذكر كاتب التقرير الناقد البريطاني جوناثان غلانسي أن : «تصميم زهاء حديد لدار الأوبرا في كارديف أثار

حماس المعماريين والفنانين وعاشقي الأوبرا والناقدين حول العالم». وقال إن إكمال المشروع كان سيجتذب موجة من المواهب العالمية والاستثمارات التي تحتاجها مقاطعة ويلز. وأعلن بأسى «لقد ضيّعنا وقت زهاء حديد، ودمرنا إيمان العديدين بأن كارديف قادرة على التطلع إلى المستقبل... والآن نعرف أن سنسناتي ستحصل على متحف رائع للفنون المعاصرة صممته زهاء. وفي حين سيكون مصير كارديف النسيان في أعوام ٢٠٠٠ ستضع سنسناتي نفسها على الخريطة العالمية».

نشأة زهاء

وتلقي نشأة زهاء الأضواء على شخصيتها المعمارية. ففي عمر ١١ سنة فكرت للمرة الأولى بأن تصبح مهندسة معمارية. لم تكن تعرف ما هي هذه المهنة، لكن في ذلك العمر المبكر كان هذا يعني لها ما يعنيه الآن ويعتبر جزءاً أساسياً من رؤيتها المعمارية، وهو «إيجاد مكان» أو «تكوين حيز» في الفراغ أو الكون.

وعلى الرغم من الحجم العالمي لشخصية زهاء حديد ونشاطها الممتد من نيويورك إلى طوكيو فإنها تتحدث عن أبيها وعائلتها بعاطفة وحماس مثل أي فتاة عربية تقليدية لم تغادر محيط العائلة. فهي تؤكد بقوة أن عائلتها لعبت الدور الأكبر في حياتها وتكوينها، وتقول إنها ما كانت ستحقق طموحها أبداً من دون رعاية والدها ووالدتها اللذين أحاطاها «بحنان وتأييد لا مثيل لهما» وفق تعبيرها. وتتحدث زهاء عن أمها خصوصاً بعاطفة جياشة.

ويُعتبر السيد محمد حديد والد زهاء من أبرز الشخصيات السياسية والمالية المثقفة في العراق. جمع محمد حديد بين الثقافة الأكاديمية الرفيعة والمواقف السياسية الوطنية إلى جانب الثراء وريادة المشاريع الصناعية. وهو مثل كثير من وزراء المال العرب تخرج من «كلية لندن للاقتصاد» London School of Economics، لكنه انضم إلى الحركة الشعبية في بلاده المناهضة للنفوذ الغربي، وتولى وزارة المالية في حكومة ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨. وأشارت الصحافة العالمية إلى أن والدها الثري هو الذي ساعدها على الاستمرار في عملها الإبداعي المستقل، وعدم الخضوع لقيم السوق التجارية. والوفاء لأبيها واضح في تكرار زهاء خلال حديث لكاتب المقال نصيحتها الذهبية بأن: «أهم شيء هو الحفاظ على الضمير النقي الذي يمكن أن يحميك مهما حدث لك». هل «الضمير النقي» هو سر الوضع المفارق لزهاء حديد التي تفوقت على أبرز المعماريين العالميين، من دون أن تلتفت إلى تحقيق النجاح التجاري الميسور لمهندسين مقاولين معدومي الموهبة والضمير يلوثون المدن حول العالم ببنايات كريهة تسبب كوارث للسكان والبيئة ؟

صور المقال

زهاء حديد.
صورة شخصية

دار أوبرا كارديف - ويلز

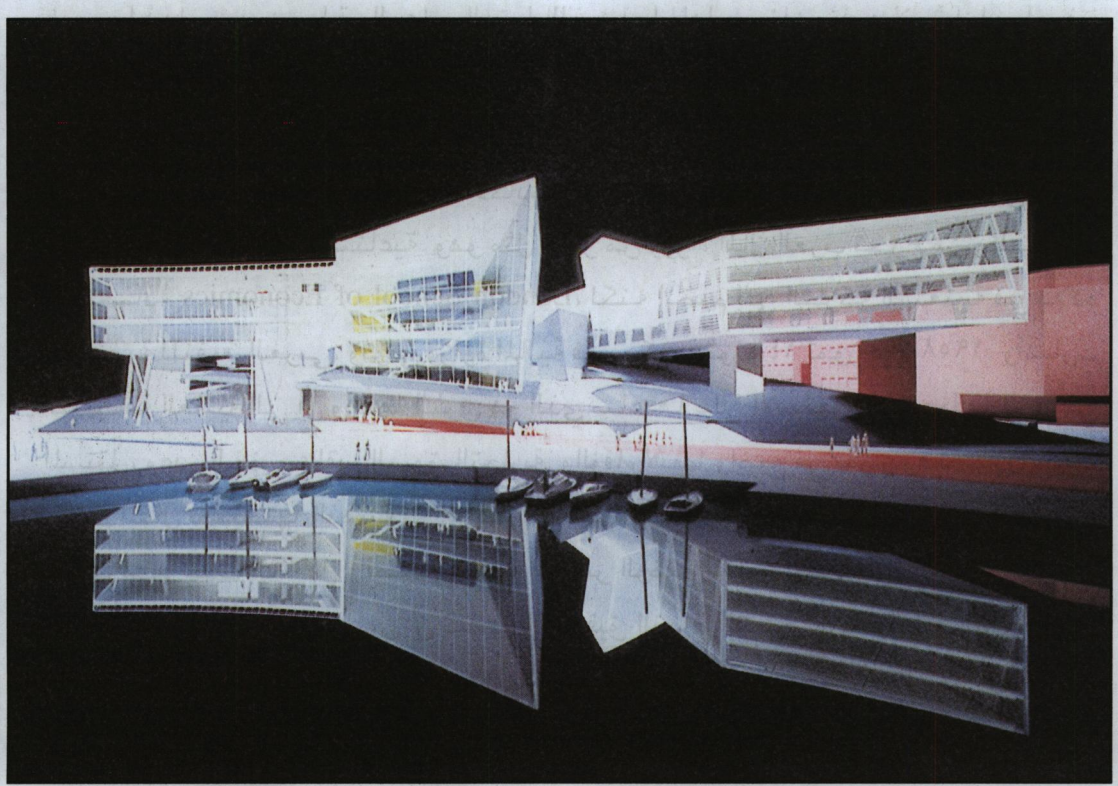

عمارة الذروة. هونغ كونغ

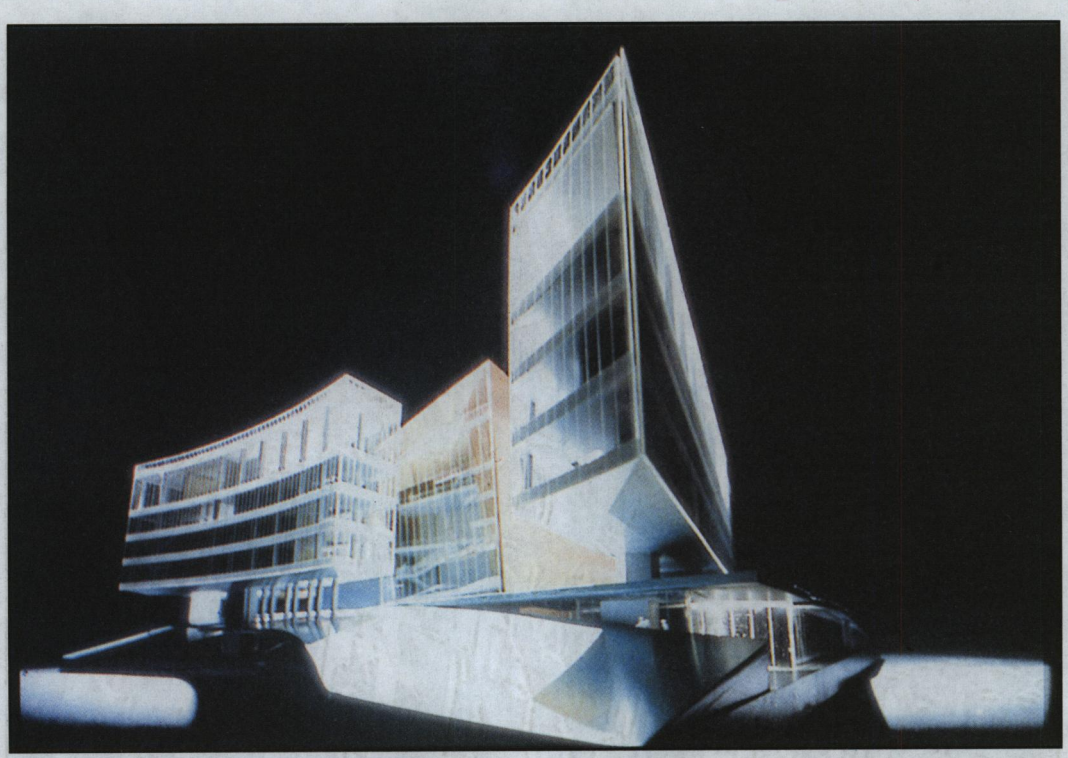

دار أوبرا كارديف. ويلز

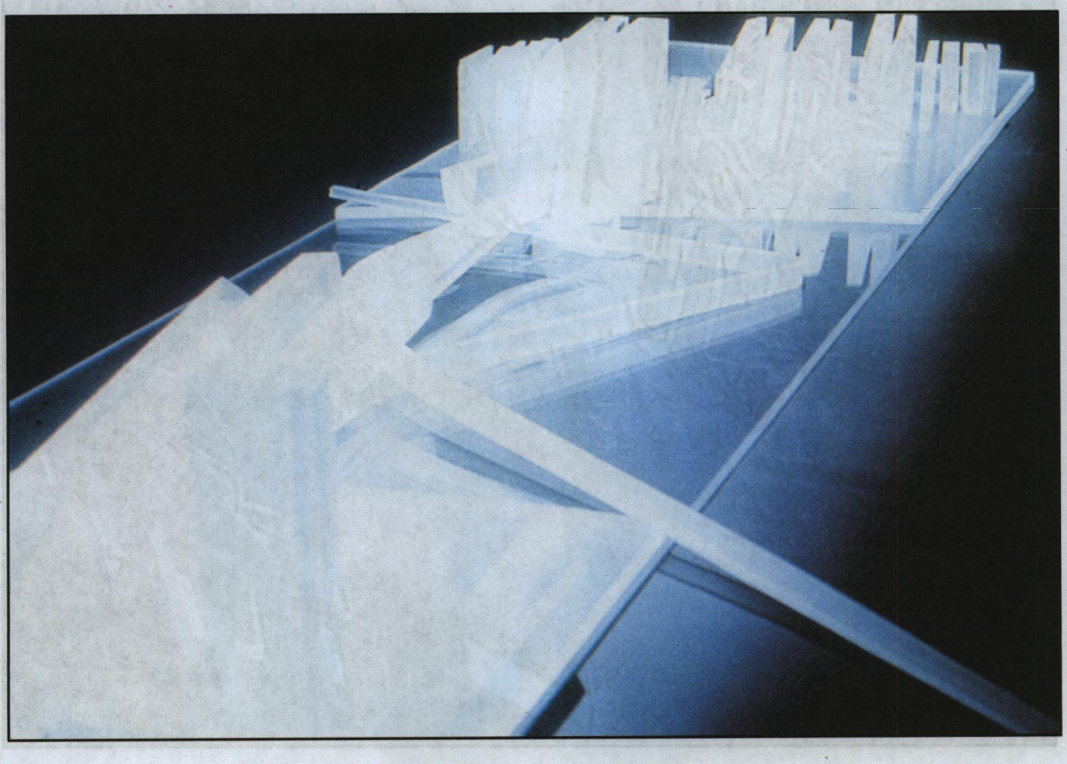

الجسر السكني. لندن

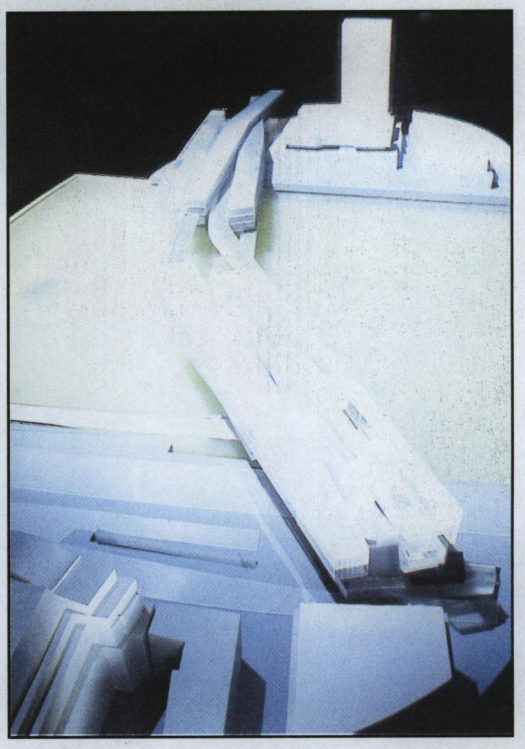

الجسر السكني. لندن

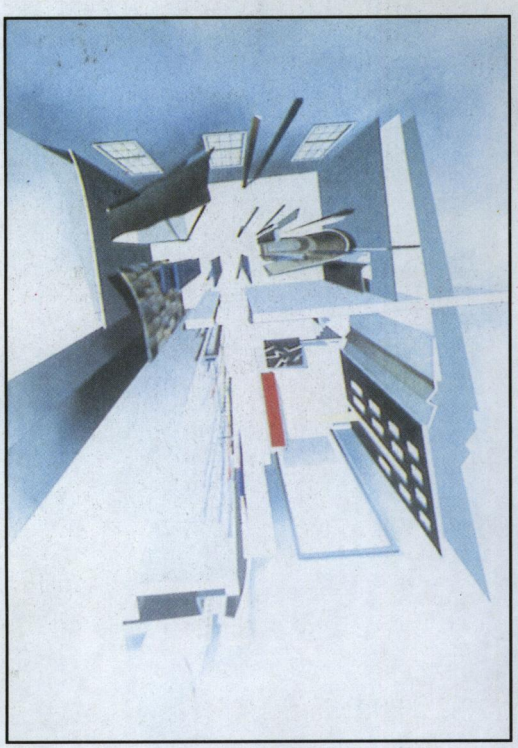

تصميم منزل «إيتون بليس». لندن

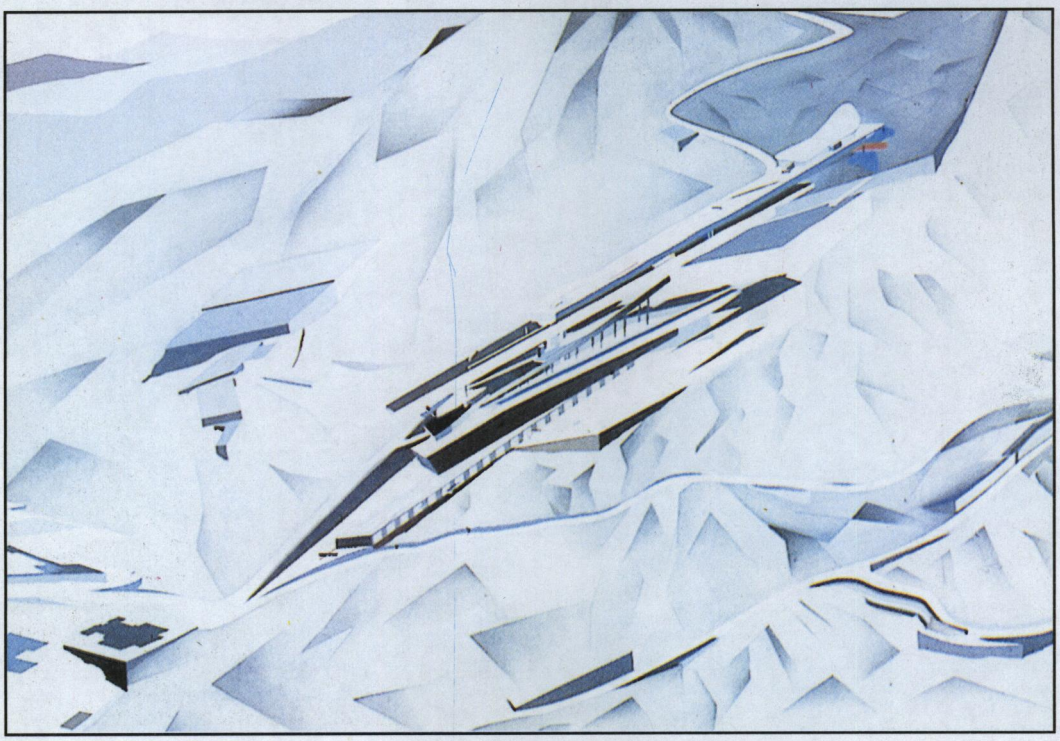

عمارة الذروة. هونغ كونغ